الخاتون: مس بيل في العراق (2 ـ 3)

بيل وصفت العلامة أنستاس الكرملي بالخبيث.. وآمنت باستحالة تحقيق وعد بلفور وإقامة وطن قومي لليهود

مارك سايكس صاغ بيان «تحرير» بغداد ونشره الجنرال مود على مضض تطبيقا لتعليمات الحكومة في لندن

نجدة فتحي صفوة

بيرسي كوكس الاستخبارات والسكان

وكانت اعمال بيرسي كوكس في بغداد كثيرة. فالى جانب تنظيم اعمال الاستخبارات كان ـ بوصفه رئيسا للضباط السياسيين ـ واسطة الاتصال بين قائد الجيش والسكان المدنيين، ومستشاره في اتصالاته السياسية بهم. وكان معظم وقته يصرف في مقابلة الوجهاء والشيوخ من شتى انحاء العراق، مما اظهر الحاجة الى مساعدة شخص خبير بتاريخ العشائر وانسابها، عالم باتجاهاتها والعلاقات بينها. وكانت مس بيل خير من يستطيع القيام بها العمل. ولكن قائد القوات البريطانية، الجنرال مود، اعرب عن مخاوف كبيرة حينما علم ان امرأة ـ مهما كانت كفاءتها ـ آتية للانضمام الى السكرتارية. كما انه خشي ان يتخذ قدومها سابقة بالنسبة لزوجات الضباط اللواتي قد يطالبن بالانتقال الى بغداد اسوة بها، وهو امر لم تكن السلطات البريطانية قد سمحت به بعد. ولكن السير بيرسي كوكس تمكن من اقناعه بعد ان اكد له بانها قادرة على تقديم خدمات يعجز عنها اي عضو اخر في الادارة السياسية.

وبعد احتلال بغداد بأسبوع واحد، كانت غيرترود بيل في طريقها اليها من البصرة على ظهر باخرة عسكرية بريطانية. وكانت رحلة نهرية بطيئة استغرقت تسعة ايام. وفي 15 نيسان (ابريل) وصلت بغداد، وكانت الدار التي خصصت لسكناها ـ على قولها ـ اشبه بعلبة خانقة، فقضت فيها ليلة، ثم خرجت تبحث عن غيرها، فعثرت في محلة «السنك»، قرب مدرسة الدهانة في ذلك الوقت، على بستان ورد فيه ثلاثة بيوت صيفية تعود لاحد اصدقائها القدماء، وهو موسى جلبي الباجه جي، فانتقلت اليها بعد خمسة ايام.

اصبحت «مس بيل» عنصرا مهما في هيئة موظفي السير بيرسي كوكس، وكانت ـ حسب تعبيرها ـ تقوم بوظيفة «غربال» لحشود الزوار والوفود واصحاب الحاجات الذين يتدفقون على مقره يوميا طالبين مقابلته. وكانت تزود السير بيرسي مع كل زائر بورقة تبين له فيها القبيلة التي ينتمي اليها، والمنطقة التي يمثلها، وما تعرفه عن ماضيه وميوله، والغرض من المقابلة، مما كان يوفر عليه كثيرا من الوقت ويسهل له العمل.

وقد وجدت «مس بيل» على اثر وصولها الى بغداد ان هناك توترا شديد في العلاقات بين الجنرال مود، قائد القوات البريطانية، والسير بيرسي كوكس، رئيس مستشاريه السياسيين. وكان مبعث هذا التوتر هو الاختلاف الصارخ بين عقليتيهما وشخصيتيهما.

كان الجنرال مود عسكريا ممتازا، همه الاول متابعة الحرب، ومواصلة انتصاراته لاستكمال فتح العراق صعدا الى الشمال. وكان في اتصالاته بسكان اراضي العدو المحتلة ـ كما كانت توصف في ذلك الوقت ـ يتصرف تصرف الفاتح العسكري دون اعارة اي اهتمام للاعتبارات السياسية، او مشاعر سكان البلاد.

والواقع ان البيان الذي اصدره الجنرال مود بتوقيعه حين دخوله بغداد، مؤكدا لسكانها ان البريطانيين دخلوا «محررين لا فاتحين» لم يكن من انشائه، بل انه كان معارضا له بشدة، ولم ينشره الا على مضض، وبناء على تعليمات من الحكومة البريطانية التي ابرقت اليه بنص البيان. وكان الذي دبجه هو السير مارك سايكس، احد طرفي معاهدة سايكس ـ بيكو سيئة الصيت.

اما السير بيرسي كوكس فكان سياسيا محنكا خبيرا في الشؤون العربية، عاش بين العرب سنوات طويلة بصفة مقيم بريطاني في الخليج. وكان بوصفه مسؤولا عن اتصالات القيادة العامة بسكان البلاد، معنيا بانشاء ادارة مدنية تحل محل الادارة العثمانية التي انسحب معظم موظفيها مع القوات التركية، وبموافاة الحكومة البريطانية بتقارير دورية ومنظمة عن الاحوال العامة في البلاد. ولكن الجنرال كان يميل الى التسلط، ولا يبدي اي اهتمام لتعليمات الحكومة حول السياسة الواجب اتباعها ولا لآراء كوكس، بل كان يتدخل في كل صغيرة وكبيرة بصورة مستمرة وغير ضرورية، بحجة الضرورات العسكرية. وفي عام 1917 كانت العلاقة بين الرجلين قد بلغت ذروتها من التوتر، وابرق السير بيرسي كوكس الى لندن طالبا تعزيز مركزه، وتمكينه من القيام بواجبه بصورة صحيحة، او اعفاءه من منصبه.

وفي هذا النزاع بين القطبين العسكري والسياسي كان للمس بيل دور حاسم. فقد صادف ان قام السير رونالد ستورز، من كبار رجال المكتب العربي في القاهرة بزيارة الى بغداد، فشرح له كوكس موقفه، وعرض مآخذه على الجنرال مود، وأيدته في ذلك المس بيل تأييدا قويا. وبادرت مس بيل من جهة اخرى الى كتابة رسالة مفصلة الى السير آرثر هيرتزل، وكيل وزارة الهند، الذي كانت لها به معرفة وثيقة، فاطلع عليها وزير الخارجية اللورد كرزن، وتمكن من حمل الحكومة البريطانية على تأييد كوكس والاستجابة لطلباته.

الأب أنستاس الكرملي

ومع ذلك فلو علم السير بيرسي كوكس، وغيرترود بيل، بما كانت الاقدار تخفيه للجنرال مود، لما كلفا نفسيهما كل هذا العناء، بل اكتفيا بالانتظار بضعة ايام اخرى. ففي مساء 14 تشرين الثاني (نوفمبر) حضر الجنرال مود حفلة اقامتها مدرسة الاليانس اليهودية في بغداد لتكريمه، وهناك قدمت اليه القهوة كما قدمت الى غيره. ولكنه طلب شيئا من الحليب ليضيفه على القهوة، فجيء له بحليب ربما كان غير مغلي، وكان مرض الكوليرا منتشرا في بغداد في تلك الفترة، ويبدو ان الحليب الذي قدم له كان ملوثا بجراثيمه، فأصيب الجنرال بالكوليرا، ومات بعد اربعة ايام، وانتهت المشكلة بهذا الحل الجذري. وقيل في حينه ان جهة ما دست السم للجنرال مود في القهوة، والله اعلم. وقالت مس بيل في رسالة كتبتها على اثر وفاته: «لم يختر احد للموت وقتا افضل من الذي اختاره الجنرال مود..».

ورغب الانكليز بعد احتلال بغداد في اصدار جريدة تنطق بلسانهم وتعبر عن سياستهم، فأطلقوا عليها ـ باقتراح من الاب انستاس الكرملي ـ اسم «العرب»، وصدر عددها الأول في 4 تموز (يوليو) 1917، وقد عهد بادارة الجريدة ورئاسة تحريرها الى المستر جون فيلبي في بادىء الامر، وكان يساعده الاب انستاس، ثم تولت مس بيل ادارة سياستها بعد ان تركها فيلبي، وكتبت في ذلك الى والدها تقول: «انني ابدأ اعمالا جديدة وطريفة، احدها رئاسة تحرير (العرب) وهي الجريدة المحلية التي نصدرها. وتملأ ذهني الخطط لجعلها اكثر حيوية بالحصول على مراسلين في شتى المناطق، ومحرر للاخبار المحلية. وانني واثقة بان القراء سيهتمون لسماع ان ابن فلان فرضت عليه غرامة لخروجه بدون فانوس بعد حلول الظلام، اكثر من اهمامهم بالاخبار التي تفيد ان قرية مجهولة في الفلاندر قد قصفت..».

ثم تشير الى الاب انستاس فتقول: «الاب انستاس، مساعد رئيس التحرير، يأتي اسبوعيا لقراة المقالات الافتتاحية التي اقوم بمراقبتها. وهو عربي من لبنان، اشبه بشخصية خارجة على التو من احد مؤلفات شوسر، عظيم المعرفة بلغته، كما انه يتكلم الفرنسية ويكتبها وكأنه احد ابنائها.

ثم تقول: «ولا يقلل من حبي له اقتناعي بانه ـ على الرغم من ثيابه الكهنوتية. رجل خبيث..».

وفي ايلول سنة 1917 التحق الكرنل ارنولد ويلسن (السير ارنولد ويلسن فيما بعد) بهيئة موظفي السير بيرسي كوكس، واصبح نائبا له. وعلى الرغم من الاختلاف بين طبائع الرجلين والتباين في آرائهما، فمن الغريب ان التفاهم بينهما كان سائدا طيلة عمل الكرنل ويلسن مساعدا او نائبا للسير بيرسي كوكس. اما علاقة ويلسن بالمس بيل فكانت مختلفة جدا.

وفي ربيع سنة 1918 استدعي السير بيرسي كوكس الى لندن للمشاورة، وانتهى الامر باعارة خدماته ليكون وزيرا مفوضا في ايران، فأصبح الكرنل ويلسن وكيلا للحاكم المدني العام في العراق، وبقي على رأس الادارة المدنية في العراق خلال سنتين حافلتين بالمشاكل والاضطرابات، وكان الرئيس المباشر للمس بيل طيلة هذه المدة.

كانت تقام في العراق، مع تقدم الجيش البريطاني فيه، ادارة مدنية جديدة، وكانت هذه الادارة تنظم على اساس اعتبار العراق منطقة من مناطق الهند، وكان الهدف النهائي هو ضم العراق الى الهند ليصبح جزءا من الامبراطورية البريطانية.

ولكن مع التغيير الذي طرأ على الجو الدولي بعد الهدنة، لم يعد ضم العراق الى الهند مقبولا دوليا، وكان على بريطانيا ان تبحث عن صيغ اخرى للابقاء على سيطرتها، ولذلك كان لابد من اعادة تخطيط السياسة البريطانية بحيث لا تقتصر على تحقيق اهداف بريطانية فقط، بل تطمئن في الوقت نفسه مطامح الرئيس الامريكي وود رو ويلسن التي عبّر عنها بمبدأ «تقرير المصير» وتكافؤ الفرص الاقتصادية لجميع الدول، ضمن بنوده الاربعة عشر. ولم يكن نظام الانتداب الذي ابتدع الا محاولة للتوفيق بين مصالح الشركاء المتناحرين، على الرغم من ان تطبيق الانتداب عمليا كان سيضمن اعطاء الاولوية لاهداف بريطانية الاستراتيجية والتجارية.

وقد وجد كثير من البريطانيين صعوبة كبيرة في قبول هذا التغيير، وما ارتاحوا له، وخاصة السير آرنولد ويلسن الذين كان مطلق اليدين في ادارة البلاد بين سنتي 1918 ـ 1920 ولا شك ان اصراره على تجاهل تطورات الوضع الدولي، والجو الجديد الذي ساد في لندن، ادى الى نتائج وخيمة جدا وربما كانت الاضرار التي عادت بها سياسته على مصالح بريطانية اكبر مما عادت به على العراق.

كان ويلسن استعماريا بنشأته وثقافته وآرائه السابقة. وكان من اولئك المؤمنين بـ«رسالة الرجل الابيض» وبأن من الواجبات التي القاها التاريخ على عاتق بريطانيا هو حمل مشعل المدنية بين شعوب الشرق المتأخرة، كما كتب في ما بعد قائلا:

«ان دور بريطانيا في رعاية بني الانسان هو بث المبادىء المسيحية في حكمهم. لقد كان ايماننا بالعراق، مثل ايمان هربرت ادوارد بالهند، انه كان امانة بيد الحكومة البريطانية، وانه بحاجة الى ما هو اكثر من ميزات المدنية المادية. ان سياستنا يجب ان تكون اعداد العراق للحرية اولا، ومن ثم اطلاقه حرا. وكنا نؤمن بأن العراق لن يكون اهلا لممارسة الحرية قبل ان يختمر بمبادئ المسيحية».

ان اصرار ويلسون على ضرورة بقاء العراق تحت حكم دولة اجنبية الى ان يصبح قادرا على حكم نفسه، فضلا عن تجاهله لرغبات سكان البلاد، ومبادئ تقرير المصير، كان اشبه بمنطق من يقول للطفل «لا تدخل الماء حتى تتعلم السباحة».

القدرة على التكيف مع الظروف

اما مس بيل، فانها على الرغم من كونها على قدر كبير من الصلابة في آرائها ومواقفها، فان احد اسرار قوتها كان يمكن في قدرتها على التكيف مع الظروف المتغيرة.

ويبدو ان إقامتها الطويلة المتواصلة في بغداد قد جعلتها اكثر تفهما للامور، واحدثت تغييرا كبيرا في آرائها عن القومية العربية ومستقبل العراق السياسي. ولو قارنا بين كتاباتها المبكرة ومواقفها الاخيرة، لوجدنا التطور في آرائها واضحا. فهي حتى سنة 1919 كانت تعتقد ان ليست هنالك في الشرق الاوسط عقائد وطنية، ولا روابط قومية. فقد كتبت مثلا في كتابها «الصحراء والمعمورة» الذي نشر في سنة 1907 تقول ان الجمعيات التي تدعو الى الوحدة العربية، ومنشوراتها الحماسية، لا قيمة لها مطلقا، لانه ليست هنالك امة عربية.. «فالتجار السوريون يفصلهم عن البدو برزخ اوسع من ذلك الذي يفصلهم عن العثمانيين. والبلاد السورية تقطنها اقوام تتكلم العربية، ولكن هم كل منها هو ان تمسك بخناق الاخرى».

ولما زارت الشرق للمرة الثانية بعد اعلان الدستور العثماني، وتولى حزب «الاتحاد والترقي» زمام الحكم في الدولة العثمانية، دونت ملاحظاتها في كتابها «من مراد الى مراد» الذي صدر في سنة 1911 فأشارت الى مرورها بالموصل، ووصفت الاضطرابات التي حدثت فيها خلال الثورة التي جاءت بالاتحاديين الى الحكم، قائلة ان الحكم العثماني هو افضل حكم بالنسبة للطوائف المختلفة والمتناحرة في المنطقة.

وفي احدى رسائلها الى ابيها في سنة 1918 كتبت تقول ان العراقيين يريدون الانكليز ولا يريدون غيرهم «لانهم يعلمون اننا سنحكم حسب عادات البلاد، ويدركون ان نصب امير عربي امر مستحيل».

وفي مؤتمر الصلح في باريس، حينما استدعيت مع الكرنل ويلسن الى باريس لتقديم المشورة للوفد البريطاني الى المؤتمر، نصحت الامير فيصل ـ الذي كان مندوبا عن الحجاز في المؤتمر ـ ان يتفق مع الفرنسيين بشأن سورية، وان يتقرب اليهم لان الامريكيين لا يمكنهم ان يعاونوهم والانكليز لا يريدون ان يتدخلوا في شؤون سورية.

ويروي رستم حيدر الذي كان المندوب الثاني للحجاز في المؤتمر بمعية فيصل، والذي حضر اجتماعاتها به، في مذكراته التي حققتها ونشرتها في سنة 1989 انه استغرب قولها هذا، واستفسر من الدكتور احمد قدري الذي كان معهم: هل مس بيل يهودية؟ قال: لا، قلت اذن هي مشتراة من الفرنسويين، او انها عشقت احد ظرفائهم، وهي تميل الى الاستعمار المطلق في الشرق. كما ان الكولونيل الذي يحكم في بغداد، مليكة الشرق، لا يريد للجنة كينغ ـ كراين ان تذهب لترى اعماله فيها، وهو لا يريد ان يجعل للاهالي صوتا مرتفعا بل يريدها كالاغنام، لان هذا لا يوافق افكاره الاستعمارية. ولنعلم ان الحزب الاستعماري المستبد الذي يتألف من امثال هؤلاء الملوك في المستعمرات، الصعاليك في بلادهم، هو حزب كبير لا يستهان بمطامعه يريد الاستبداد لانه هو الحاكم. ومس بيل معاونته، لا ترى رأيا غير رأيه».

ويذكر رستم حيدر في مذكراته ايضا انه اجتمع مساء اليوم نفسه بلورنس ونقل له آراء غيرترود بيل، فقال له لورنس: «ان مس بيل عقلها صغير، وليس لقولها اهمية تذكر، واما الكولونيل (ويلسن) فليس من رأيها تماما، على انه حاكم في بغداد، ويريد ان يحتفظ بموقعه».

ان ما ذكرناه من قدرة مس بيل على التكييف السريع مع الظروف المتغيرة، جعلها تغير كثيرا من آرائها بسرعة. وفي حين ان ويلسن بقي مصرا على عدم الاعتراف بأن الشعور الوطني في العراق قوة يجب ان يحسب حسابها، ويجب التعاون معها بدلا من محاولة كبتها، فان مس بيل ادركت في النهاية انه يجب، على الاقل، الاعتراف بحقيقة واحدة، وهي ان الناس يفضلون ان يحكموا أنفسهم بأنفسهم، ولو بدون كفاءة، على ان يحكمهم غيرهم بكفاءة عالية».

وكتبت في احدى رسائلها من بغداد فيما بعد:

«ان ما اتمنى ان يقوم به السير بيرسي كوكس هو ان يعطي مواطني هذا البلد مسؤولية واسعة، فهي الطريق الوحيدة لجعلهم يعرفون اية مهمة صعبة هي الحكم.

«اننا اذ نشجع هذا الكائن الحي على النمو، ونجس نبضاته في ايدينا، لا نستطيع ان نحول دون نموه وارتفاعه..».

وفي رسالة كتبتها الى المستر «يومان» الذي كان مديرا للمعارف في العراق في عهد الاحتلال، ثم انتقل الى عمل مماثل في القدس، قارنت بين سياسة بريطانيا في فلسطين (بادارة هربرت صموئيل) وسياستها في العراق قائلة:

«انني لن اقبل، ولو اعطيت الدنيا كلها، ان اعمل في تلك السكرتارية (تريد سكرتارية حكومة فلسطين) اذ ان مهمتنا في العراق مهما كانت عسيرة، فاننا على الاقل نسبح مع التيار الموجود، وهو التيار الوطني، والذي هو، على اي حال، الحركة الوحيدة الظاهرة، في حين انكم (في فلسطين) كما يبدو لي، مضطرون الى السير في عكس التيار».

ولم تكن افكار غيرترود بيل حول ضرورة الاعتراف بواقع الشعور الوطني قاصرة على العراق وحده، وانما كانت آراؤها في مستقبل فلسطين لا تقل عنها وضوحا، جاء في رسالة كتبتها من بغداد في مطلع سنة 1918 وبعد اعلان تصريح بلفور تقول:

«.. وبالمناسبة، فانني اكره التصريح الصهيوني للمستر بلفور حول سورية (وهي تريد سورية بالمعنى الجغرافي الذي كان يشمل سورية ولبنان وفلسطين) واؤمن بأنه لا يمكن تحقيقه... فالبلاد بصورة عامة لا تصلح للاهداف التي يفكر فيها اليهود. انها ارض فقيرة، غير قابلة لتنمية كبيرة، وثلثا سكانها على الاقل هم من العرب المسلمين الذين ينظرون الى اليهود باحتقار. وهو في رأيي مشروع مصطنع كليا، بعيد عن اية علاقة بالواقع، وانني اتمنى له الفشل الذي يستحقه، والذي سيناله فيما اتصور..».

وفي مناسبة لاحقة كتبت الى ابيها (في 10/10/1920) تقول:

«.. لننتقل الآن الى منطقة اخرى من مناطق الانتداب: فلسطين. ان نفس المبادىء العامة يجب ان تنطبق عليها. ومع ذلك فان هربرت صموئيل خلال الشهرين الماضيين، أسس في فلسطين حكومة بريطانية ذات مستشارين عرب. وهو يفعل ذلك لأن تأسيس اي نوع من المنشآت الوطنية ذات الطابع المستقل سيؤدي الى رفض الصهيونية ـ ولكن اليس هذا شجبا كافيا للصيهونية؟ انني شخصيا اعتقد ذلك، وأؤمن انه في وقت ما، وربما بمساعدة مصر، ستنفض فلسطين عنها نير الصهيونية. وستكون الغلطة غلطتنا، لانه اذا كان هنالك درس اتاح لنا العراق فرصة تعلمه، فهو انك لا تستطيع ان تدافع عن امر، وتفعل غيره».

عملت غيرترود مع ويلسن بانسجام في البداية، ولما صدر التصريح البريطاني ـ الفرنسي حول مستقبل البلاد العربية، عارضه ويلسن بشدة وابرق الى الحكومة البريطانية قائلا:

«ان تعيين امير (عربي) في الوقت الحاضر ليس عمليا، وامر غير مرغوب فيه. ولا اعلم فيما اذا كان مثل هذا التعيين يعد التزاما ضروريا بالنسبة الى التصريح الصادر في 8 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918 فاذا كان الامر كذلك فانني اتوقع ان يكون النهج الذي اختارته حكومة جلالته لهذا البلد شائكا..».

ويقول ويلسن ان مس بيل طلبت اليه ان يبلغ وزير المستعمرات انها تتفق في الرأي مع ما جاء في هذه البرقية وجميع البرقيات التي ارسلت حتى ذلك الوقت حول هذا الموضوع.

في سورية

ولكن على الرغم من هذا الانسجام المبدئي بدأت بوادر الخلاف تظهر في رسائل مس بيل الى والديها.

وكانت قد مرت سنة كاملة تقريبا بين توقيع معاهدة فرساي وتوزيع الانتدابات في مؤتمر سان ريمو في نيسان (ابريل) 1920، ولم تصدر عن المقيمية البريطانية خلال سنة 1919 اية تصريحات واضحة عن السياسة التي تعتزم بريطانيا انتهاجها في العراق. وظهرت بوادر عدم ارتياح شديد فيه بسبب استمرار الاحتلال العسكري من جهة، وقيام دولة عربية مستقلة في سورية، من جهة اخرى. اذ لم يرتح العراقيون حين رأوا ان السوريين اعتبروا قادرين على حكم انفسهم، بينما كانوا هم ـ في نظر الحلفاء ـ غير اهل لذلك.

وفي اواخر سنة 1919 قامت مس بيل بزيارة الى سورية، وقابلت هناك عددا من العراقيين الذين يشغلون مناصب مهمة في حكومتها، ابرزهم ياسين الهاشمي. ويبدو انها تعرفت هناك للمرة الاولى على نوع الحكومة التي يريدها العراقيون الذين يعملون مع فيصل في دمشق. وقدمت لدى عودتها تقريرا من اهم تقاريرها بعنوان «سورية في تشرين الاول (اكتوبر) 1919»

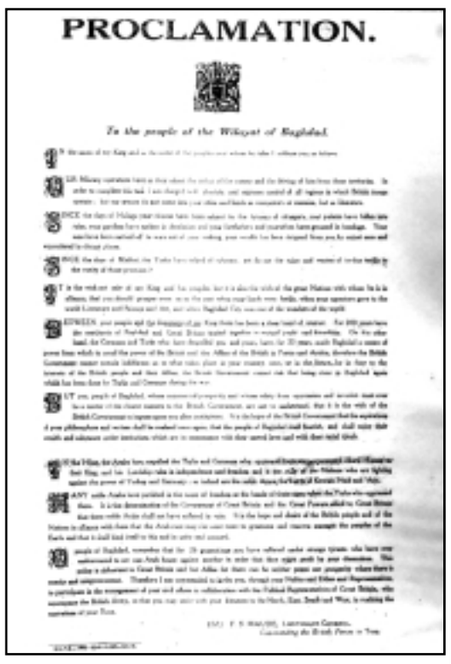

اعلان احتلال العراق

غطى مقابلاتها ومباحثاتها خلال زيارتها. وقد ختمته بوصف الفوضى وسوء الادارة السائدين في سورية خلال حكم فيصل. ولكنها مع ذلك لم تشجب قيام حكم وطني قبل أوانه، بل بررت ذلك الوضع بأنه كان «ضرورة تاريخية» لا بد لبريطانيا من مواجهة مثله وقبوله في العراق ايضا» وقالت: «حينما نؤسس ادارة مدنية في هذه البلاد (أي في العراق) فان وجود حكومة وطنية في سورية منذ سنة أمر لن ينساه الوطنيون العراقيون».

وقد اعتبر ويلسن ان سكرتيرته الشرقية، بتقريرها هذا، الذي جاء خلافا لآرائه، قد خانته وخذلته.

وفي رسالة كتبتها مس بيل في 12 شباط (فبراير) 1920 اشارت الى الوضع في العراق، قائلة: «وفيما عدا ذلك، فان الأمور ليست سهلة. اعتقد ان ويلسن يعالج الوضع بصورة ممتازة».

وهنا كانت مس بيل مخطئة. فالواقع ان ويلسن لم يكن ليعالج الوضع بصورة ممتازة. اذ حدثت في الرميثة بعد كتابة هذه الرسالة بمدة قصيرة، الواقعة التي كانت فاتحة ثورة عارمة انتشرت في سائر انحاء الفرات الاوسط والأسفل، ثم امتدت الى بغداد وغربها وشمالها حتى بعقوبة وشهربان وسامراء.

تلك هي ثورة العشرين، او الثورة العراقية التي اجبرت الحكومة البريطانية على تغيير سياستها العراقية، والاقلاع نهائيا عن فكرة الحكم المباشر، وتطبيق سياسة الانتداب تحت قناع معاهدة بريطانية ـ عراقية.

ويبدو ان احداث الثورة قد زادت في توتر اعصاب ويلسن وخشونته مع موظفيه وكل من يتصل به. فقد كتبت مس بيل في 9 ايار (مايو) 1920 تقول: «ان تناول الغداء في المكتب امر مزعج نوعا ما. ويلسن يترأس اجتماعات الغداء، وهو كثيرا ما يكون غاضبا كالدب. ولذلك فان الطريقة الوحيدة هي اهماله وعدم التحدث اليه. وهو لا يرتاح الى ذلك ايضا. ولكن ما العمل؟».

وحينما منح ويلسن وسام «فارس الامبراطورية الهندية (K.C.I.E) الذي اصبح بموجبه يحمل لقب «سير»، كتبت غيرترود في احدى وسائلها (في 23 ايار/مايو 1920):

«لقد منح ويلسن وسام (فارس الامبراطورية الهندية) وانني مسرورة جدا، فهو جدير به كل الجدارة. اعترف أنني اتمنى انهم وقد منحوه رتبة فارس، لو استطاعوا ايضا ان يمنحوه شيئا من الصفات الخلقية التي تنسب الى الفرسان عادة».

واستمرت العلاقات بين مس بيل والسير آرنولد ويلسن بين مد وجزر، وفي تموز (يوليو) 1920 بلغ الخلاف بينهما ذروته في فصل عاصف وصفته قائلة: «كنا حتى الآن نقضي ضربا من (شهر العسل)، ثم حدث لسوء الحظ ان افضيت الى احد اصدقائنا العرب هنا بنتفة من المعلومات التي لم يكن (من حيث المبدأ) ينبغي اعطاؤها. وهي لم تكن ذات اهمية كبيرة، ولم يتبادر الى ذهني انني اخطأت حتى ذكرت الأمر لويلسن عرضا. وكان في ذلك الصباح في سورة من الغضب، فصب جامه علي. قال ان عدم تبصري في الأمور لا يحتمل، وانني يجب ان لا اطلع على اية ورقة في المكتب بعد الآن. وقد اعتذرت عن تلك الهفوة المعينة لكنه استمر قائلا: لقد اسأت اكثر من اي شخص آخر هنا، وانني لو لم اكن على وشك المغادرة لطلبت فصلك منذ شهور».

السير برسي كوكس

انني لن اقبل، ولو اعطيت الدنيا كلها، ان اعمل في سكرتارية حكومة فلسطين اذ ان مهمتنا في العراق مهما كانت عسيرة، فاننا على الاقل نسبح مع التيار الموجود، وهو التيار الوطني، والذي هو... على اي حال الحركة الوحيدة الظاهرة، في حين انكم (في فلسطين) كما يبدو لي، مضطرون الى السير عكس التيار...

---

* نص المحاضرة التي ألقيت في قاعة الكوفة بلندن مساء الأربعاء 7 كانون الأول (ديسمبر) 2005

الكاتب: دبلوماسي وكاتب عراقي. تخرج من كلية الحقوق ببغداد عام 1945 وواصل دراسته في جامعة لندن. قضى في السلك الدبلوماسي العراقي 25 سنة تقريبا عمل خلالها في لندن وعمان والقاهرة وجدة وباريس وانقرة وواشنطن وموسكو على التوالي، كما كان وكيلا مساعدا لوزارة الخارجية ومديرا عاما للدائرة السياسية فيها. عين في سنة 1967 سفيرا في الصين ولكنه استقال وتفرغ للكتابة والتأليف. مارس تدريس اللغة العربية قبل التحاقه بوزارة الخارجية وشارك في مؤتمرات علمية تاريخية عديدة، وحاضر في عدد من الجامعات العراقية والبريطانية والالمانية. منحه اتحاد المؤرخين العرب (وسام المؤرخ العربي) كما انه يحمل (وسام الاستقلال) الاردني. ومن كتبه: من مذاهب الادب الغربي 1943، اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى 1967، العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب 1969، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (موسوعة في 12 جزءا صدرت منها ستة اجزاء حتى الآن) وغيرها من الدراسات، وحقق العديد من الكتب منها مذكرات رستم حيدر (1989)، وكتاب (خواطر وآراء) للرصافي 1988 ومذكرات جعفر العسكري (باللغة العربية 1988 وباللغة الانكليزية 2003) وآخرها مذكرات محمد حديد.

وله اكثر من خمسمئة بحث ومقالة في مختلف المجلات والجرائد العربية اضافة الى 1800 حلقة من زاوية «هذا اليوم في التاريخ».